

الخنجر المسموم

الذى طعن به المسلمون

أنور الجندى

دار الاعتصام

الخنجـــر المســـموم
الذى طعن به المسلمون

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الخنجر المسموم الذى طعن به المسلمون ؟.

ذلك هو السؤال الذى تلح الأحداث المتوالية فى العالم الاسلامى على التائه وتطلب الاجابة عليه ، وهو تساؤل مقدم اليوم على كل سؤال ، لقد تحدث المصلحون عن مقاتل متعددة أصيب المسلمون بهـا فى كيانهم وذكروها وأولوها اهتمامهم وبحثـوا أمرها ، ولكنهم لم يركزوا كثـيرا على « الخنجر » الذى طعنوا به فى هـذه المقاتل ، وأولى لهم أن ينتزعوه من جسمهم أولا قبل أن يعالجوا مكانه النازف بالدم ، ذلك لأنهم اذا لم ينتزعوه فسوف يظل ينزف وسوف لا يكون جدوى لشىء ما من اصـلاح أو تصحيح أو تحرير أو علاج ، اذ لابد أن يبدأ العمل من نقطة أولية :

هى نقطة الخنجر ، ذلك الخنجر فى تقديرى وفيما وصل اليه اعتقادى واعتقـاد الكثيرين من العاملين فى دراسات التغريب والغزو الثقافى هو « التعليم » وما يتصل به من شأن التربية والثقافة ، هذا هو الخنجر المغروس فى الجسـد الاسلامى ، وما يزال ينزف دما ، ولقد كان المستعمرون غاية

فى الدهاء عنـــدما بداوا معركتهم مع المسلمين والعـــرب من المدرسة وعن طريق برامج التعليم ومن خلال الارساليات والسيطرة على أجهزة المعارف والتخلص من المناهج والمقررات والكتب التى كانت تدرس فى مختلف انحاء العالم الاسلامى والبلاد العربية ، الأزهر والزيتونة والقرويين ومعاهد الحديث ورجالها والعاملين بهـــا ، واحلال مناهج جديدة ومقررات جديدة ، واذا كان يرمز الى هذا بدنلوب فى مصر فان البلاد الاسلامية قد عرفت عشرات من أمثاله وأنداده .

واذا كانت مفاهيم الثقافة الاسلامية القائمة على الكتاب والسنة قد انحسرت فى بيوتنا ومجتمعنا فانما مرد ذلك كله الى هذا الخنجر المدفون فى أعماق الجسم الاسلامى .

واذا كان المســـلمون قد طعنوا فى شريعتهم فأقصيت عن مجال التطبيق فى مجتمعاتهم وحل محلها القانون الوضعى فانما مرد ذلك الى التعليم الذى خرج أجيالا تحتقر الشريعة وتؤمن بعظمة قانون نابليون .

واذا كان المسلمون قد طعنوا فى لغتهم وبرزت دعوى العاميات فى مختلف أنحاء الوطن العربى وغيرت الأبجديات فى بعض الأقطار الاسلامية فانما مرد ذلك الى مناهج التعليم التى خدعت العرب والمسلمين بدعوى عظمة اللغات الأجنبية ودخول اللغة اللاتينية الى المتحف فلماذا تبقى العربية العجوز .

واذا كان المسلمون قد طعنوا فى مفهومهم الاســـلامى للاقتصاد فانما يرجع ذلك الى أن المسلمين والعرب درسوا فى مدارس الارساليـــات وفى المدارس الوطنيـــة الموجودة

فى العالم أن الربا هو القاسم المشترك الأعظم على كل الأنظمة والمشروعات .

واذا كان المسلمون قد طعنوا فى مفهومهم السياسى الاسلامى فانما يرجع ذلك الى تلك الصور الزاهية التى قدمت لهم فى مدارسهم وجامعاتهم عن الديمقراطية والليبرالية والجماعية وغيرها من أنظمة الغرب فخدعهم .

واذا كان المسلمون قد طعنوا فى مفهومهم للعلم فانما يرجع ذلك الى تلك المقررات المدرسية والجامعية التى ترد العلوم الحديثة من كيمياء وفزياء وفلك وطبيعة وتكنولوجيا الى علماء الغرب وحدهم متجاهلة ذلك الدور الخطير الذى قام به المسلمون والعرب فى بناء الطابق الأساسى من منشأة العلم وأنهم هم الذين قدموا المنهج العلمى التجريبى الى البشرية كلها .

واذا كان المسلمون قد طعنوا فى مفاهيمهم الاجتماعية فانما مرد ذلك الى مناهج التعليم الذى يدرس المجتمعات الغربية وفهم مدرسة العلوم الاجتماعية ، الذى يقوم على انكار فطرية الأسرة وأصالة الدين وثبات الأخلاق ويدعو الى التطور المطلق والى الجبرية الاجتماعية ، كل ذلك يدرسه أبناء المسلمين فى مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم على أنه حقائق مقررة ، لا على أنه نظريات مؤقتة مرتبطة ببيئاتها وعصورها ، قابلة للخطأ والصواب لأنها من نتاج عقليات بشرية تخطىء وتصيب .

هذا هو الخطر الواضح من وراء الخنجر الذى طعن به المسلمون . ومفهوم هذا الخطر ان النفس الاسلامية فى العالم الاسلامى كله من حيث أنها قد انحسرت فى بيوتها مفاهيم الثقافة الاسلامية القائمة على القرآن والسنة ، وضعفت القدرة التى تبنى الشباب ، فانها تسلم الى المدرسة شبابا غضا ، يحس بالفراغ فى مجال وجدانه وعاطفته وفكره ، فلا يجد الى مفاهيم الاسلام سبيلا ، ثم اذا به يلتقى بتلك المفاهيم التى تصور له فكر الغرب على صورة العقيدة ، وتملأ نفسه بحب تاريخ الغير ، وترفع فى نظره شأن لغة الغرب وتقــدم له العــلم والاقتصاد والقــانون والاجتماع من نتائج مجتمعات اخرى على أنه هو الفــكر الانســانى والثقافة البشرية .

واين الفكر الاسلامى فى ذلك كله والمسلمون لهم منهج حياة كامل وله مفهوم جامع للحيــاة والمجتمع والسياسة والاقتصاد والتربية .

هذا كله مما لا يزال ضائعا ولا يزال ناقصا ولا يزال مهمــلا .

ومن هنا فان هذه النفس المسلمة التى عجزت عن أن تملأ فراغها الروحى والفكرى بمقدراتها وقيمها لا تلبث أن تملأه بأى شىء ، وبما يقدم اليهــا زاهيــا براقا فى كتب ملونة مزخرفة ، بينما هى تعجز عن أن تجد من فكرها ما يرد عنها الخطر أو يصحح لها الخطأ أو يزيح عن نفسها الشبهات .

تلك هى القضية الأولى أيها السادة فى التحدى الخطير الذى يواجهه المسلمون اليوم فى كل مكان ، ومن هذه النقطة نصل الى كل قضية وكل ازمة ، وكل موقف ، ومن خلال الطريق الطويل استطاعت قوى الصهيونية والاستعمار والشيوعيـــة أن تحقق ما وصلت اليه لأنهـــا استطاعت أن تبث فكرها فى النفس الاسلامية وأن تحتويها وأن تنقلها من دائرة الاسلام المرنة الجامعة المتكاملة الوسيطة الى دائرة الغرب المغلقة القاتلة .

ومن هذه النقطة نصل الى كل ما تطمعون فيه من وحدة وتقدم وقيام أمة الاسلام فى أرضها بدورها الربانى الانسانى العالمى الذى هو مفروض عليها والذى هو حق فى أعناقنا جميعا والذى يجب أن نلقى (الله) عليه صادقين والا فنحن آثمون مقصرون مأخوذون بجريرة الذنب .

لكى نفهم هذه القضية الكبرى أعمق فهم لابد أن نبحث عن أبعادها الى أقصى مدى ولا نقع فى الأخطاء التى فرضها علينا نفوذ الدائرة المغلقة بأن نقصر البحث على ما هو أمامنا من واقع لأن كل واقع أمامنا لابد أن يكون متصلا بأبعاد أخرى غير منظورة فى المكان أو التاريخ ونحن فى الاســـلام نؤمن بالتكامل والنظرة الجامعة ونرى كل العناصر مؤدية الى بنـــاء عمل واحـــد فلا نفرق بين التربية أو الأخـــلاق أو الاقتصاد أو الاجتماع أو السياسة أو الفن .

كذلك فنحن فى واقعنا القائم يجب أن تكون نظرتنا ممتدة الى يوم ان بعث الله رسوله بهذه الرسالة من ناحية والى اليوم الآخر الذى يقع فيـــه الجزاء حتما وأن نعرف أن روابطنا بالأمم ليست حديثة وانما هى قديمة جدا ، وليست اقتصادية أو سياسية او دينية وانما هى كل هذا .

ولنعرف الحقيقة الكبرى التى رسمها القرآن وهى أن عالم الاســـلام تكون من قلب عالم أهل الكتاب وهو منذ وجــد فى صراع معه وسيظل الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هــذا هو التحدى القائم الذى يجب أن يظاهر حيـــاة المسلمين وحضارتهم ولا يغيب عنهم لحظة ، ذلك أن الأمم لا تموت الا اذا فقدت عنصر التحدى أو الطموح ولقد كانت ازمة المسلمين فى مرحلة ضعفهم وتخلفهم هى فقدان عنصر الطموح والاستنامة الى ما وصلوا اليه ، هنالك اندفع العدو الذى يرقبهم وينتظر منهم لحظة غفلة فأدال منهم .

« يود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » فليأخذ المسلمون بالحذر ليجعلوا التحدى نصب أعينهم ، هذا التحدى الذى هو صورة مغايرة لهدف محدد يتكرر تحت أسماء مختلفة فى التاريخ من حروب صليبية فى المشرق الى حروب الفرنجة فى المغرب الى حروب التتار الى الاستعمار الحديث الى الصهيونية العالمية الى الدعوات الهدامة من شيوعية واباحية والحادية ووثنية ومادية .

ونحن نعرف أن معركة حاسمة دارت بين الاسلام والغرب هى معركة الحروب الصليبية ، وقد عاشـــها المســـلمون بالمقاومة والجهـــاد مائتى عام وانتهوا منهـــا بالنصر ، ولكن هل كان هذا هو نهاية الشوط بالنسبة للغرب ، وهل توقف طموحه للسيطرة على أرض الاسلام وبلاد الاسلام ، ان شيئا من ذلك كله لم يحـــدث، لقـــد استمرت المؤامرة واطردت وتبلورت فى مفهوم جديد .

كان ذلك المفهوم يتصور أن المسلمين قد غلبوا الغرب وهزموه لأنهم متقدمون حضاريا وعسكريا فلابد من هزيمتهم حضاريا وعسكريا ، فانتقض الغرب على ميراث المسلمين ونقل منهج العلم التجريبى وانطلق وسبق به المسلمين حتى كانت معارك الدولة العثمانية مع الغرب فى آخرها تمنى دائما بهزيمة المسلمين لأمر واحد هو ان الغرب استحدث اساليب فى الصناعة والحرب عجز عنها المسلمون .

غير أن الغرب لم يقف عند هذا فى صراعه ومؤامراته ولكنه وصل الى مقطع الأمر كله وذلك عندما قرر ان تكون الحرب الموجهة الى عالم الاسلام هى حرب فكر ، ذلك أن المسلمين مهما تخلفوا فى ميادين الصناعة والعـــلم فسوف تبقى لهم عقيدتهم الراسخة التى تحمـــل طابع الجهـــاد والتى تدفع بألوفهم الى ساحات الاستشهاد فى سبيل الدفاع عن الحق ، وعن الأرض ، وعن العرض ، اذن فالمعركة يجب أن تبدأ أولا من هـــذه النقطة الخطيرة ولابد من تزييف هـــذه العقيدة

وامتصاص ما فيها من قوة وجهاد وايمان حتى يفقد المسلمون هـذا السر الخطير الكامن فى نفوسهم . وقد تصور الغرب أنهم عندئذ يصبحون قطيعا من السائمة التى تنطوى وتقهر ومن هنا بدأت معركة أطلق عليها أسماء كثيرة .

(التبشير ، الاستشراق ، التغريب ، الغزو الثقافى ، الاحتواء) .

* * *

الوثيقة الأولى :

لقـد وضعت الخطة منذ وقت مبكر وان لم تستكشف الا بعـد سنوات طويلة وكانت أولى علاماتهـا المستكشفة فى وصية لويس التاسع بعد هزيمته فى المنصورة بما يمكننا من القول بأن نهاية الحروب الصليبية كانت بداية المخطط الجديد للغزو الثقافى والفكرى ودحر الاسلام كفكر بعد العجز عن دحر أمته .

وتعد وصية لويس التاسع أخطر وثيقة فى هذا الاتجاه فهى التى فتحت البـاب واسـعا أمام عمليـة التبشـير والاستشراق .

وعلى اثرها مبـاشرة بدأت حركة أوروبا المعـروفة الى ترجمة القرآن والتعرف على الاسلام وبدأت نواة التبشير

والاستشراق فى المعاهد الأوروبية : دراسة اللغة العربية والاسلام والقرآن بمفهوم الرد عليه وانتقاصه واثارة الشبهات حوله .

وقد ظاهر هذه الحركة عملية « سرقة » التراث العربى الاسلامى من البلاد العربية والاسلامية بواسطة القناصل والتجار . واستميحكم العذر فى أن أقول « سرقة » لأن عملية الاستيلاء على الفكر الاسلامى فى الأندلس أيضا كانت « سرقة » بالرغم من ان المسلمين كانوا يؤمنون بأن العلم للجميع حتى العلم التجريبى الذى هو الآن من أسرار الأمم الحديثة والتى عجز المسلمون والعرب خلال قرن ونصف قرن فى الحصول على أصوله ومعادلاته .

أما المسلمون فكانوا يعلمونه فى جامعات الأندلس وجزيرة صقلية فى حرية تامة ، غير أن الغرب فى تناهى حقده لم يقف عند هذا الحد ، بل انه عزل الموقع الاسلامى كله وصادره بما فيه واخرج من المسلمين اخراجا ، وكذلك فعل فى الأندلس حيث أحرزت أوروبا كل ثمرات النتاج الاسلامى العلمى والفكرى بأرضه ومعامله ومعاهده وحوائطه ولم تبق للمسلمين حتى مجرد القدرة على استئناف تجاربهم وهم فى أرض أخرى هاجروا اليها .

لقد عكف لويس التاسع بعد هزيمته فى المنصورة خلال

محبسه فى دار ابن لقمان يفكر ويستعرض هـذه الحملات الصليبية المتوالية على بيت المقدس ودمشق ومصر وكيف هزمت هزيمة منكرة وكيف هزمت حملته فى قلب دلتا النيل ، وسبق الى الاعتقال ، وكيف كان المصريون والعرب والمسلمون يقاتلون ببسالة عجيبة فى الدفاع عن بلادهم خلال سبع حملات متوالية ووصـل الى نتيجة حاسمة : هى أن المسـلمين لا يهزمون ما دام فكرهم باقيـا وما دامت عقيدتهم قائمة ، ذلك لأنهم تدفعهم فى قوة الى الاستشهاد فى سـبيل حماية الذمار ومقاومة الغاصب وتطهير الأرض من دنس الغزاة ، والاسلام يجعل القتال فى سبيل تحرير الأرض دينا وعقيدة ولذلك فان سبيل الغرب الى الانتصار على المسلمين والسيطرة على ارضهم يجب أن تبدأ أولا من حرب الكلمة ولابد من أن تقوم فى الغرب قوى من الباحثين والدارسين يترجمون القرآن ويدرسون العربية ويعملون على القضاء على تلك المفاهيم القوية التى تتصل بالجهاد فى سبيل الله ، فاذا استطاع الغرب أن يفعل ذلك فقـد استطاع أن يقضى على القوة الروحية والنفسية القائمة وراء تلك المقاومة الجبارة وعندئذ يمكن الغرب السيطرة على العالم الاسلامى ، ومن هذه النقطة بدأت حرب الكلمة بالتبشير والاستشراق والتغريب والغزو الثقافى والسيطرة على التعليم والتربية والثقافة والفكر والصحافة وقد استطاعت هذه الخطة أن تحقق للغرب انتصاراته التى يمكن أن يطلق عليها الاستعمار الغربى الحديث ولا ريب أن وثيقة لويس التاسع تنصح بهذا الاتجاه الخطير وتدعو اليه .

ناقص من أصل المصدر

نقص من أصل المصدر

كان فيه عمل مماثل يتحرك فى تونس والجزائر ومراكش ، وأعمال اخرى فى المناطق الاسلامية فى الهنـد وفى جاوة وأندونيسيا والفيليبين .

* * *

الوثيقـة الثانية :

أما الوثيقة الثانية فهى تقرير من أحد معاهد الارساليات بقلم الأستاذ نبيه أمين فارس يكتشف فيه أبعاد الخطة كلها وهى فى نظرنا وثيقة تطبيقية لمخطط لويس التاسع يقول : « بينما كان الشرق الأدنى مطمحا لأفكار بناة الامبراطوريات كان أيضا مطمح انظار جماعة أخرى من النـاس تنشد أن تنجز عن طريق « الكلمة » ما عجز أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف . وبعبارة اخرى تنشد احتلال مهد المسيحية واخضاع العالم كله للمسيح . ان هذا الحلم المسيحى قديم — قدم المسيحية ذاتها — وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية العظمى كما سجلها ابو المبشرين ، القديس بولس .

ولعل سبب سيطرة هذه الوصية كرة اخرى على عقول المسيحيين يعود الى اليقظة الدينية التى عمت انكلترا فى أواخر القرن الثامن عشر ، واليقظة الدينية المقابلة لها فى الولايات

المتحدة التى تمثلت فيما سمى بروح انكلترا الجديدة وعلى ذلك فقد شـــهدت السنوات الأخــيرة من القرن الثــامن عشر والســـنوات الأولى من القرن التاســع عشر ظهور كثير من الجمعيات التبشيرية التى كرست نفسها لحمل الانجيل الى جميع البشر ، ويمكن أن يضاف الى هذين العاملين عامل آخر هو ازدياد المطابع السياسية والاقتصادية فى ممتلكات رجل اوروبا المريض (يقصد الدولة العثمانية الاسلامية) ومن المحتمل ان يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميدانا مفضلا للنشاط التبشيرى .

ومن اهم هذه الجمعيات التبشيرية التى ظهرت فى هذه الفترة : الجمعية التبشيرية الكنيسة التى اسست فى لندن عام ١٧٩٩ والمجلس الأمريكى لمندوبى البعثات التبشيرية . وقد ارسل المجلس الأمريكى بعد تسع سنين من تأسيسه اول مبشريه الى الشرق الأدنى ولما كانت المشكلة الأولى التى واجهت اولئك المبشرين هى اختيار مركز ملائم لهم . وقدم ســـوريا ١٨٢٣ مبشرا آخرين وانتقلوا الى بيروت وكان غرض البروتستانت ان يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهض من كسب الكفار الى دين المسيح غير انهم سرعان ما وجدوا ان الاسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين وصمم المبشرون منذ البداءة على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال السيف وفى سبيل هذه الغاية اسسوا المطبعة الأمريكية اولا فى مالطة ١٨٢٢ ثم فى بيروت

١٨٣٤ واخذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منظمة حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثا وثلاثين فى اقل من هذا العدد من السنين وعكفوا على انجاز تلك المهمة العظيمة : مهمة اعداد ترجمة عربية صالحة مقروءة للتوراه .

وعدوا فوق ذلك حمل لواء الحرية الدينية بصورة خاصة والمطلقة بصورة عامة (١) .

* * *

الوثيقــة الثالثة :

ومن الجزائر تقدم هذه الوثيقة : من قلم الدكتور محمد تقى الدين الهلالى نشرها فى الفتح عام ١٩٣١ .

« ان هؤلاء الأوروبيين الفاتحين المبعدين للأحرار المخربين للديار ما زالوا يحرمون عبيدهم من كلمة الجهاد ويعدون ذكراه فضلا عن فعله من اعظم الذنوب وهو آية الهمجية والتعصب الدينى المقوت ، وبلغ ببعضهم الأمر أن حرموا على المسلمين تفسـير آيات الجهـاد فى كتب الفقـه ويعنى شاهدت صـحيفة الاذن التى حصـل عليهـا شـيخنا محمـد ابن حبيب الله الشنقيطى رحمه الله فى مدينة المشرية قسم وهران من الجزائر وفيها أن الاذن بتدريس علوم الدين مقيد بأن المدرس لا يفسر اى آية أو حديث يدل على الجهـاد

---

(١) مجلة الأبحاث أيلول ١٩٥٨ م ١١ ص ٣٨٣ .

وأن لا يدرس شيئا من أبواب الجهاد فى كتب الفقه ولما راجت دعاية هؤلاء فى الشرق صار المسلمون ينفرون من لفظ الجهاد » .

ويعد المبشرون أن أولى فرصتهم جاءت بعــد سقوط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ حيث أمكن منذ ذلك الوقت تفسيخ الدولة العثمانية وتوسع بعثات التبشير على النحو الذى حقق تنفيذ مناهج التعليم على النحو الذى رسمته مخططات الغزو حتى ليقول الدكتور زويمر زعيم المبشرين وكبيرهم فى الشرق فى مثل هذا التاريخ الذى نقلنا فيه وثيقة الجزائر تقريبا ما يأتى :

— ان السياسة الاستعمارية لما قضت من نصف قرن — أى منذ عام ١٨٨٢ تقريبا — على برامج التعليم فى المدارس الابتدائية اخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام وبذلك اخرجت ناشئة لا هى مسلمة ولا هى مسيحية ولا هى يهودية . ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة .

* * *

الوثيقــة الرابعة :

وهذه الوثيقة يقدمها عميد المبشرين فى البلاد العربية فى الثلاثينات (وهى اخطر مراحل تاريخ العالم الاسلامى الحديث فهى مرحلة تكوين الأسس والقواعد والخطط التى خرجت من بعد نتائجها الخطيرة) .

يقول صــمويل زويمر فى تقــريره فى مؤتمر المبشرين

سنة ١٩٢٤) فى كل حقل من حقول العمل يجب أن يكون العمل موجهـا نحو النشء الصـغير من المسلمين وموزعا فيما بينهم ليحيط بهم وليكونوا منه على صلة مباشرة ، ويجب ان يقدم هـذا على كل عمـل سواه فى الأقطار الاسلامية فان تنور روح الاسـلام فى الناشىء الحديث يبتدىء باكرا من عمره فيجب والحالة هـذه أن يؤتى بالنشء الصـغير من المسلمين قبل ان يتكامل نمو عقليتهم واخلاقهم وحينئذ يستعصى على المبشر ولم يزل التعليم التبشيرى هو انضل طريقة للوصول الى المسلمين) .

ويعود فى المؤتمر التالى بعد عشر سنوات عام ١٩٣٣ فيصور ما تحقق من نتائج وما يجب التأكيد عليه فى المرحلة القادمة فى مؤتمر المبشرين فى القدس :

ان مهمة التبشير الذى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست هى ادخال المسلمين فى المسيحية فان فى ذلك هداية لهم وتكريما . وانما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الاسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ، وبالتالى لا صلة تربطه بالأخـلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها وبذلك تكونون أنتم بعملكم هـذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الاسلامية .

هذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السابقة خير قيام .

لقـد قضينا فى هـذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر الى يومنا هذا على جميع برامج التعليم فى الممالك الاسلامية ، ونشرنا فى تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس

والجمعيات والمدارس المسيحية تلك التى تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية . ولذلك جاء النشء الاسلامى طبقا لما أراده له الاستعمار المسيحى لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يعرف أهمية فى دنيـــاه الا الشهوات فاذا تعلم فللشهوات واذا جمـــع فللشهوات واذا تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل المال يجود بكل شىء .

وفى نفس الطريق تقول المبشرة (أناميليجان) :

« ليس ثمة طريق الى حصن الاســـلام أقصر مسافة من هذه المدرسة ، ان المدرسة أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير الدين المسيحى ، هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما قادة أوطانهم » .

***

الوثيقـــة الخامسة :

وهناك وثائق أخرى حيـــة : تتمثل فى أفراد وأحداث أما فى عام ١٩٠٩ فقد ثار الطلاب المسلمون فى احدى مدارس الارساليات الكبرى لاجبارهم على الصلاة المسيحية يوميا فأصدرت هذه الكلية بيانا قالت فيه :

« ان هذه الكلية مسيحية اسست بأموال شعب مسيحى هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر اذا لم يسندها هؤلاء ، وكل هذا قد فعله هؤلاء

ليوجـــدوا تعليما يكون الانجيـــل من مواده فيعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب ان يعرف سابقا ماذا يطلب منه .

ثم جاء النص الآتى : « ان الكلية لا تؤسس للتعـــليم العلمانى ولا لبث الأخـــلاق الحميدة ولكن من أولى غاياتها ان تعلم الحقائق الكبرى التى فى التـــوراة وأن تكون مركزا للنور المسيحى » .

* * *

الوثيقـــة السادسة :

قد كشف ذلك طالب عربى معروف هو عبد القـــادر الحسينى (ابن كاظم باشا الحسينى وبطل معركة القسطل فيما بعد) الذى وقف فى حفل توزيع الدبلومات فى احدى العواصم العربية على المنصة وفى يده الشهادة التى اخذها ثم اتجه الى الحاضرين وكانوا علية القوم وقال :

« ان هذه الجامعة تظهر أمام الناس فى مظهر المدرسة العلمية ولكنها فى الحقيقة بؤرة افســـاد للعقـــائد الدينية وهى تطعن فى الدين الاســـلامى ولذلك لا يصح للمسلمين ان يبقوا أولادهم بها » .

كان ذلك يوم ٢٧ مايو عام ١٩٣٢ .

فاهتزت الدنيا للحدث وأسرع المبشرون الأساتذة يمزقون

الدبلوم من يد الطالب وينهرونه ولم يلبث عبد القادر أن نشر قصته فى الصحف وأعلن عن الكتب المقررة التى تهاجم الرسول والاسلام وحاولت الجامعة أن تتنصل وتقول أن هذه الكتب ليست مقررة .

❋ ❋ ❋

وكان الدكتور وطسون مدير الجامعة قد أعلن قبل ذلك بقليـــل .

أن المعتقدات الاسلامية آخذة فى الانحلال وانها غير ملائمة للحالة الحاضرة وان الجيل الناشىء الذى نتصل به نراه مهتما كل الاهتمام لا بالاســـلام ولكن بالمسائل المادية والالحاد ، ونحن نسر حين نستطيع أن نجعل فتى مسلما يقبل مبادىء المسيحية ووحى المسيح .

وقال الدكتور وطسون :

واننا نراقب سير القرآن فى المدارس الاسلامية ونجد فيه الخطر الداهم ذلك أن القرآن وتاريخ الاسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير .

❋ ❋ ❋

الوثيقـــة السابعة :

وهناك وثائق تشهد على أصحاب المخطط نفسه ، ذلك انه عندما بدأت حركة التغريب التى تضم التبشير والاستشراق

فى تقييم عملها تقدم خمسة من المستشرقين لدراسة العـالم الاسلامى كله وقدموا تقارير شاملة عن مختلف الأقطار نشرت تحت عنوان هوزر اسلام (المترجمة وجهة الاسلام) .

وفيها يتحدث كبيرهم هاملتون جب عن التعـليم فيقول وهى وثيقة اخرى نقدمها للباحثين :

« ان ادخال طرائق جديدة فى البلاد الاسلامية كان سيطلب نظاما جديدا فى التربية من عهد الطفولة فى المدارس الابتدائية والثانوية قبل الانتقـال للدراسات العالية ، وان اصـلاح التعليم على هذا النحو لم يكن فى ذلك الوقت يخطر على بال السلطات المدنية الاسلامية ، ولكن هذا الفراغ ملأه هيئات اخرى فقـد انتشرت فى منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس فى معظم البـلاد الاسلامية ولا سيما فى تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالبا الى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة . وربما كان اكثرها عددا المدارس الفرنسية ، وقد كانت المدارس الانجليزية فى الامبراطورية العثمانية اقل منها فى الهند وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية .

هذه المدارس صاغت اخلاق التلاميذ وكونت أذواقهم والأهم انهـا علمتهم اللغات الأوروبية التى جعلت التلاميذ قادرين على الاتصـال المباشر بالفـكر الأوروبى فصاروا فى سبيل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التى فعلت فعلها أيام الطفولة (أى التعليم على الطريقة المسيحية) .

وفى أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة الى أبعد حد من ذلك بانماء التعليم العلمانى تحت

الاشراف الانجليزى فى مصر والهنـد ولعـل هناك نصيبا من الحق فى التهم التى ترمى بهـا هـذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ وان كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التى أعقبت ذلك فى البلاد الاسلامية أيدت هذه التهمة .

ولكن الذى فعلته بلا ريب أنها ربت فى التلاميذ خروجا على الأنظمة الاجتماعية واضعف من هـذه الوجوه سلطان النزعة الاسلامية القديمة على التلاميذ واخلت فى بناء المجتمع الاسلامى أداة هامة وقطعت بعض الأواصر التى كانت تربطه وتحفظه » .

ويقول جب راسما خطة المستقبل : « لقـد استطاع نشاطنا التعليمى والثقـافى عن طريق المـدارس العصرية والصحافة أن يترك فى المسلمين ولو من غير وعى منهم أثرا يجعلهم فى مظهرهم العام لا دينيين الى حد بعيد ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الاسلامى على حضارته من آثار » .

هذه صورة سريعة للخنجر الذى غرس فى جسم الأمة الاسلامية جاءت بعـد خمسين عاما محققة للهدف مكونة للأجيال التى أرادها الاستعمار .

تحقق هـذا منذ أن دعا اليه لويس التاسع وحـدده غلادستون عندما وقف فى مجلس العموم البريطانى ومعه المصحف الشريف وقال : اننا لا نستطيع أن نحكم المسلمين ما دام هذا الكتاب باقيا فى الأرض .

ثم جاء كرومر وقال : جئت لأمحو ثلاثا : القرآن والكعبة والأزهر . وجاء تقرير لورد دوفرين الى اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا بعد الاحتلال البريطانى لمصر محددا الخطة التى توقف نمو الأزهر وتركز على التعـليم المدنى وترفع من شأن العامية وتخفض من شأن القرآن . قال دوفرين فى تقريره الذى نشرته المقتطف فى المجلد السابع ص ٦٦٨ :
« اخال ان أمل التقدم فى مصر ضعيف طالما أن العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية ، لغة القرآن ، كما فى الوقت الحاضر حالة كونها لا تتعلم اللغة العربية الدارجة لأن نسبة اللغة المصرية الدارجة الى لغة القرآن كنسبة الايطاليانى الى اللاتينى والاغريقى القديم ، وعربية الفلاح لغة قائمة بنفسها وقواعدها خاصة بها واذا لم توجد الاحتياطات الفردية للحصول على النتائج المقبلة فى المدارس العديدة التهذيبية التى أشرت اليها يستمر الجيل الجديد كسابقه وغير صالح لخدمة وطنه سواء كان للقيادة العسكرية أو فى الصنائع أو فى الخدمات وتبقى عبارة مصر للمصريين كما كانت اسما بلا مسمى » .

ولقـد كانت مهمة كرومر واضحة ومستمرة فهو دائب فى كل عام أن يرددها :

« فى مصر جيل جديد يختلف عن أجداده فى أشياء كثيرة فيمكن أن تحدثه نفسه يوما بأن يمد الى تلك الأركان القديمة يدا لا تعرف حرمة القديم فيكون أشد عليها من يد حكومة تمدها اليوم طبقا لارشاد قوم لا شأن لهم فى الأمر (يعنى الانجليز) لأنهم لا يدينون بالدين الاسلامى ، فاذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب فالأجدر بأبناء اليوم أن يشرعوا فى الاصلاح ويلاقوا الأمر قبل حلوله » .

هذا فى مصر ، والتاريخ يحفظ مثله فى تونس والمغرب والجزائر لكرومرها ودنلوبها : وفى كل بلد اسلامى كرومر ودنلوب يجرى على نفس الخطة وينفذ نفس المخطط .

ويعلق اللورد لويد (المندوب السامى فى مصر) بعد كرومر بعشرين عاما فى كتاب له تحت عنوان (مصر منذ أيام كرومر) على خطة التعليم فيقول :

« ان التعليم الوطنى (فى مصر) عندما قدم الانجليز كان فى قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين والتى كانت أساليبها الجافة تقف حاجزا فى طريق أى أصلاح تعليمى وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدرا عظيما من غرور التعصب الدينى فلو أمكن تطوير الأزهر لكانت هذه خطوة جليلة الخطر فليس من اليسير أن يتصور لنا أى تقدم طالما ظل الأزهر متمسكا بأساليبه هذه ولكن اذا بدا أن مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها فعندئذ يصبح الأمل محصورا فى ايجاد التعليم اللادينى الذى ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح » أ. هـ .

وقد حقق الاستعمار هذا تماما حين فرق التعليم فى العالم الاسلامى الى دينى ومدنى فجمد الأول وحجب خريجيه عن مناصب القيادة ودفع الثانى دفعة قوية الى الصراع والتعارض والخصومة وأعلاه فى خبث ومكر شديدين .

وجملة القول فى هذا أن الخنجر الذى طعن به المسلمون قد وضع بذكاء فى موضع القلب وقصد به أن تكون المناهج كلها وخاصة فى العقيدة والتاريخ واللغة قائمة على أساس

فلسفة الغرب ومفاهيمه واعلاء شخصيته وتاريخه ، وحتى يكون تاريخ المسلمين وعقيدتهم ولغتهم هى موضع احتقار شبابها ومثقفيها . ولن احدثكم عن النتائج فأنتم تعلمونها وان كل ما يتصل بأزمة المسلمين والعرب اليوم انما مرده الى هذا الخنجر المغروس قريبا من القلب وهو ما يزال ينزف بغزارة . اناشدكم الله أن تبحثوا عن السبيل الذى يمكنكم من اقتلاعه وتضميد جراحه .

أنور الجندى

* * *

دار العلوم للطباعة
القاهرة، ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت: ٣١٧٤٨٠

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٩/١٤٤٣
الترقيم الدولى x — ٢٦ — ٧٣١٨ — ٩٧٧